

الرسالة الثانية لأبي دلف ومكانتها

في الأدب الجغرافي العربي

إذا كانت « الرسالة الأولى » تتضمن وصف رحلة واحدة معينة فإن الرسالة الثانية على حدنا كبد مؤلفها يجب أن تكون تكملة الأولى « وتجمع عامة ما شاهدهه وتحيط بأكثر ما عاينه » .^(١)

ويرى المؤلف أن الغرض من تأليفه العلم والمنفعة « لينتفع به المعتبرون ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض »^(٢).

والطابع الخلقى أو الروحي هو ما يميز به كثير من مؤلفات العصور الوسطى لاسيما في الأدب . وما في الرسالة الثانية من ترويح في موضوعها وحيوية في عرضها وتلون أسلوبها قد قربها إلى الأدب الفنى بمقدار ما كان مؤلفها شاعرا وهذا شيء غير مستغرب .

ويبدو تكوين الرسالة كأنه طريق عدة رحلات يبدأ من مدينة « الشيز » في جنوب اذربيجان ويمتد في البداية إلى الشمال حتى مدينة « باكو » ثم إلى « تفليس » ومن هناك عبر « أردبيل » في شهر زور وفي النهاية يسير بدرجة تقل أو تكبر إلى الشرق عبر كرمسين - همدان - رى - طبرستان - قومس - طوس - ينسابور إلى هيرات ثم بمد وصفها ينتقل أبو دلف إلى معالم أصفهان ومدن خوزستان وعندها ينتهى الكتاب . ومرارا ما يستدعى وصف أبي دلف تعبيرات مثل « ووصلت أو مرت .. » ونسير إلى ... وهكذا.

(١) انظر نص الرسالة ص ٦

(٢) نفس الصفحة.

ومن الواضح أن طريقة ترتيب أحداث الرحلة وسرد وقائعها وكذلك تلك التعميرات الوصفية تبدو كلها أنها مجرد طريقة المؤلف في الكتابة وعلى حد افتراض كراتشكوفسكى فإنه من الصعب أن نرى في هذا الترتيب طريقا واضحاً محددًا للرحلة (١) .

وفي نفس الوقت يجب الإشارة إلى أن بعض الأماكن الموصوفة في « الرسالة » يشك في أن أبادلف قد زارها . ومن المحتمل أنه قلما عرف شيئاً عن ديلم وخوارزم فهو لم يذكر عنهما معلومات كثيرة تفصيلية واكتفى بذكر وصف عام قصير وهو أمر يتناقض تماماً مع حالات وصفه للأماكن التي يعرفها جيداً . وإن الشك في زيارة أبي دلف شخصياً لبعض المدن والبلاد تستدعيه كلكانه التي يعبر بها عن وصف معالم هذه الأمكنة مثل : « يقولون هناك يوجد... » وبهذا الشكل يمكن استخلاص أن أبادلف كان يستخدم أحياناً معلومات منقولة عن مصادر ثانوية من مختلف ناقلى الأخبار وبناء على « رسالته الأولى » فإن مثل هذا الأمر ليس بغريب عنه .

وفي الرسالة لا يذكر أحياناً بداية أو نهاية لنقط أو مراكز الرحلة في الطريق الذى سلكه فيها وإنما مجرد انتقالات ترتبط فيما بينها ارتباطاً ضعيفاً . فهناك انتقال غير متوقع من معالم أرمينيا العامة الذى سبق وصف مدينة « ارارات » إلى شهر زور بل وأكثر من هذا من ينسابور إلى اصفهان . وهنا يجب أن نضيف أيضاً عدم وجود الترتيب الزمنى . فعند وصف حوادث شهر زور يذكر أبو دلف تاريخ ٣٤١/٩٥٢ - ٥٣ ، ثم بعد ذلك يذكر أنه كان في « كرمسين » في عام ٣٤٠/٩٥١ - ٥٢ . وهذا يعزز القول بأن هذا الكتاب

(١) كراتشكوفسكى : الرسالة الثانية ص ٢٩٢ .

أبى « الرسالة الثانية » قامت على أساس مواد أجمعها المؤلف عند قيامه بأسفار كثيرة وفيما بعد جمعها ورتبها على الصورة التي هي عليها .

ويتضح بصورة كبيرة أن أبا دلف كرجل مثقف لا كجغرافي قد حافظ عن قصد عند تأليف « رسالته » على تقاليد الأدب الجغرافي العربي . وعن هذا يتحدث عرضه للمادة في صورة طريق رحلة واحد وكذلك وجود بعض العناصر التقليدية في بعض أوصافه . وكما هو الحال في كل المؤلفات الجغرافية ذات الطابع الوصفي يوجد في « الرسالة » كقاعدة الطابع العام الضروري لموضوع الوصف سواء كان ذلك الموضوع منطقة أو مدينة أو بلدة أو بحيرة أو جبل أو غير ذلك . وحجم المكان وموقعه ووفرة مياحه (إذا كان ذلك نقطة أو مكانا مأهولا) . وفواكه وخيراته وكذلك مختلف المعالم الأخرى .

ويحاول أبو دلف على قدر الإمكان أن يقلل من الكلام عن نفسه ولم يذكر أى تفصيلات حياتيه في رحلاته . ولم يذكر أى معلومات ذات طابع تاريخي أو إداري أو جغرافي يمكن أن تكون معروفة في مصادر أخرى رسمية أو غيرها . وهو يصف بشح وبيخل وبكلمات قليلة المعالم الواضحة التي نسي له أن يراها . وبطريقته الخيالية أستطاع أن يقدم صورة ناصعة واضحة من وصف الآثار النادرة للعمارة والظواهر الطبيعية العربية والاساطير الممتعة . وهو على ما يبدو أحد المؤلفين الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط في « باكو » وعن « فرخد » قاطع الحجر الأسطوري . ونراه يخطار بحياته فيرجع إلى « دماوند » ويكشف أسطورة عن الضحاك . ويمكن القول بأن البحث عن موضوعات مسلية من أجل راعيه وحاميه وكذلك الملاحة الباشرة لأبى دلف مع أعماله ومناشط بنى ساسان هما العاملان اللذان حددا النظام الرئيسي للرسالة الثانية .

وما يلفت النظر قبل كل شيء اهتمام أبي دلف بمعرفة أساس أو اصل مختلف المعادن المفيدة . ويرجع ذلك حسب قوله إلى أعماله في الصيدلة والكيمياء . وأبو دلف يذكر أكثر من ٤٠ مكانا يوجد فيها المعادن أو الأحجار الطبيعية كالذهب والرصاص والزنبق والنحاس والألومنيوم ومعادن أخرى كثيرة . وفي هذا الصدد ينبغي الإشارة إلى اهتمام أبي دلف الكبير بالأصول المعدنية والصفات العلاجية أو الدوائية لبعض النباتات .

ويكاد يكون أكبر مكان في « الرسالة » مخصصا لوصف الآثار لاسيما العتيقة منها غير المعروفة لعاهله وحاميه أما الوصف التفصيلي بصفة خاصة فهو لآثار العصر الساساني . (١)

ويورد أبو دلف عدة أساطير يقوم جزء كبير منها على أساس التقاليد الشعبية الشفهية وكذلك يورد حكايات عن بعض الظواهر الطبيعية المتممة وبعض المعلومات ذات الطابع التاريخي والاقتصادي والثقافي التاريخي والجغرافي .

هذا هو طابع مضمون « الرسالة الثانية » : تركيز كبير متمع بصورة لا تضاد لها مثيلا ومادة علمية قيمة تضعها في عداد المصادر القيمة للتاريخ العام والجغرافي للقوقاز وإيران . والاهتمام الخاص بتمثله المعلومات الخاصة بالمصادر النفطية في باكو والمعادن المفيدة في أرمينيا ، ومعدييات وطواحين تفليس

(١) ليس أبو دلف في هذا الصدد استثناء شلال كثير من السنين بعد غزو العرب للفرس كان جغرافيوهم في القرنين ٩ - ١٠ يعتبرونه من الواجب ادراج أو ذكر المباني الرئيسية للساسانيين ويذكرون أن خسرو بنى في زمنه بلدة وقلعة ، وحصنا وجسرا .

ك . أ . اقترانتسوف : دراسات ساسانية . سانت بطرسبورج ١٩٠٩ س ٤٤ .

والمعلومات ذات الطابع السكاني عن أرمينيا وجرجان وبعض مناطق خراسان. (١)
وفي مؤلف أبي داف يظهر بوضوح طابعان أو أنجاهان : الوصف الدقيق
للظواهر الطبيعية والاهتمام الخاص بكل ما هو براق وغير عادي وكذلك نحو
المعالم والعجائب .

وكلا الطائفتين بحاسنهما وعيوبهما يفسرهما ويشرحهما صموئيل وتعقيد حياة
المؤلف نفسه . ونذكر في هذا الصدد أن موضوع صدق معلومات أبي داف كان
عسيرا دائما . فبين المؤلفين الشرقيين والمستشرقين الأوربيين على السواء ، ساد
تقليد يتمثل في أخذ موقف الحذر والاحتياط من معلومات أبي داف . فالنديم
تشكك في معلومات أبي داف عن حجم عاصمة الصين (٢) . وكثير من الملاحظات
النقدية اللاذعة لياقوت الموجهة لأبي داف قد ذكرها كراتشكوفسكي مع مناقشة
عظيمة (٣) وذلك بفضل تأثير محرر مخطوط مشهد .

وعدم ثقة المستشرقين بأبي داف يمكن أن تعزى إلى ما أشير إليه من
قبل من تناقض معلوماته بالإضافة إلى نقد بعض العلماء العرب المحترمين مثل
النديم وياقوت .

وعلاقة أبي داف مع بنى ساسان حددت على ما يبدو اهتماماته بالدراسات
الطبيعية والعلوم الصيدلانية والطبية وكذلك أعطته خبرة كبيرة في ملاحظة ومقارنة

(١) لعرض مضمون الرسالة بصورة أكثر تفصيلا أنظر مقالة بولناكوف
وخاليدوف ، الرسالة الثانية ، لرحالة القرن العاشر أبي داف مجلة الاستشراق السوفيتي

١٩٥٧ عدد ٣ ص ٦٠ - ٧١

(٢) كتاب الفهرست ج ١ ص ٣٥٠ / ١٦٠ .

(٣) كراتشكوفسكي : الرسالة الثانية ص ٢٨٧ .

البلاد والناس وذلك إلى جانب ما يقال عن إهماله وعدم اكترائه بالحقائق ومحاولته ذر الرماد في العيون . ولهذا فإن معلوماته ينبغي أن ينظر إليها في كل حالة على حدة حتى يمكن تحديد مقدار ما بها من حقائق أو خيال . وعلى كل حال يبدو أنه حتى أكثر المعلومات غير المقبولة أو المحتملة تحتوي في داخلها على أرضية من الحقيقة أو بعض الحقيقة . وقد خصص مكان في الملاحظات لتناول هذه المسائل بالتحديد .

تحرير الرسالة وزمن كتابتها

كما هو الحال « في الرسالة الأولى »^(١) نجد أن الرسالة الثانية كما يبدو من مقدمتها ومن ملاحظات مؤلف مجموعة المخطوط مخصصة أو جعلت من أجل عاهليه الاثنيين دون أن يذكر اسميهما .

عند تسلم المخطوط قام أحد هذين الماهلين بضمه إلى مجموعة المخطوط المشار إليها أما المعلومات عن النسخ الأخرى أو الاقتباسات المنقولة فقد ضاعت ولم يحتفظ بها ، وبمقارنة مخطوط مشهد مع نص ياقوت والقزويني يتضح أنهما استخدمتا « رسالة » أبي دلف في تحرير مخطوط مشهد لكن هل استخدم ياقوت مخطوط مشهد هذا نفسه ؟ هذا سؤال لا يمكن تقريره نهائيا إلا بعد مقارنة كل المخطوط الذي يحتوي على المؤلفات الأربعة مع اقتباسات ياقوت .

(١) مخطوط مشهد ص ٣١٦ ، الترجمة الروسية : ابن فضلان ١٩٣٩ ص ٢٧ ، ٢٨ - ٢٩ ص ١٧٥ أ / ص ٧ واقتباس الترجمة الألمانية رور إصوير : أبي دلف ص ١٥ - ١٦ ، الترجمة الروسية لأبي دلف .

وقد تناولات « الرسالة » ابدى محررين غير معروفين لنا ويمكن ان يكون قد طرأ عليها تغييرات . ومن المشكوك فيه ان يكون نص المؤلف قد اصابه اى تغيير لكن ربما اختصر على غرار مؤلفات ابن الفقيه وابن فضلان . وللأسف فإن هذا من الصعب التأكد منه او الوصول إليه . ففي النص توجد بدون توقع وقفات زمنية فى تسلسل الأحداث وصعوبات فى معرفة الأماكن وهو ما يمكن ان يعزى إلى المؤلف او المحرر او ناسخ الخطوط .

اما بالنسبة لزمان كتابة الرسالة الثانية فيمكننا الحكم عليه بالإشارة التالية لابي دلف : وكتب هذا التصنيف عند توجهه إلى طبرستان تحت اسم مستعار « السائر » . وتحت مثل هذا الإسم المستعار فى الأدب يذكر ابو الفضل السائر إلا ان تاريخ توجهه هذا غير معروف بالضبط .

وبناء على ما يذكره ابن اسفنديار^(١) فإن ابا الفضل السائر العلوى هو حفيد الناصر الكبير وفى الخمسينات من القرن الثامن حارب من اجل السلطة مع البويهيين فى طبرستان تارة بنفسه وتارة بالأمجاد مع « وشمجير » .

ويذكر ه.ف. امدروز^(٢) ان تاريخ وفاة ابي الفضل السائر ٣٤٥/٩٥٦-٥٧ .

(1) An Abridged Translation of the History of Tabaristan compiled about A. H. 613 (A. D. 1216) by Muhammad b.al-Hasan b. Isfandiyar, based on the India office ms. compared with two mss. in the British Museum, by E. G. Browne. (GMS, 11) Leyden, 1905, pp. 222 - 223.

(2) The Eclipse Of the Abbasid Caliphate, edited, translated and elucidated by H. F. Amedroz and D. S. Margoliouth vol. I. Oxford, 1920. P. 276 note 3.

إلا ان ذاخر الدين المرعشى وهو من اعظم مؤلفى تاريخ طبرستان يذكر انه فى سنة ٩٦١/٣٥٠-٩٦٢ قام السائر بغزوة حربية من غيلان والديلم فى طبرستان ويقص عن صراعه مع حاكم جبال والبويهيين ولم يذكر اى تواريخ اخرى ترتبط بحياته او مناشطه واعماله .^(١) ويمكن ان يضاف إلى هذه المعلومة دليل مادى من العملة : ابو الفضل جعفر السائر فى الله العالوى صك عملة فى « خوسم » (مكان جبلى وراء طبرستان والديلم) فى ٣٤١/٩٥٢ - ٥٣ . وما يثبت ذلك وجود درهمين مضروبين فى خوسم سنة ٣٤١ احدهما يوجد فى دار العملة الملكية فى استكهم والثانى فى متحف تاريخ اذربيجان^(٢) . وعند وصف حوادث شهر زور يذكر ابو داف تاريخ ٣٤١ . وعلى هذا فان تأليف الرسالة الثانية لأبى داف بل ونفس مجلد مخطوط مشهد كان فى نفس هذه السنة او بعدها بقايل .

(١) سهير الدين ص ٣١٤ - يبدو أن على أساس ما يذكره ذاخر الدين افترض « ملجنوف » أن تاريخ ظهور « السائر » على المسرح السياسى هو ٩٦١ . (ملجنوف ص ٥٨) .

(٢) أ . دوبرافولسكى : الدينار الفضى الأليدى من منتصف القرن الحادى عشر : محاضرة تليت على دورة المستشرقين فى مايو سنة ١٩٥٩ فى ليننجراد .

مخطوط مشهد والطبعة الراهنة

لما كان كل المخطوط قد كتب بيد واحدة ويحتوى على معلومات متجانسة فلا توجد ضرورة لتكرار وصفه فقد ذكره « كوالفسكى » في مقدمته لترجمة مواف ابن فضلان ^(١) وهو ما يوجد عنه عدة كتب . وسنقتصر على وصف « الرسالة الثانية » وهى ما يهمنا : وهذه تشمل على ١٥ ورقة من ص (١٩٢٦ إلى ١٩٦٦) . والنص مكتوب بقلم بخط النسخ بحجم متوسط وكل صفحة عليها ١٩ سطرا . وتاريخ النسخ غير موجود وبناء على الخط يمكن القول بأن المخطوط يحتمل ارجاعه إلى القرن ١٣ .

والطبعة الحالية تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية : النص المنقح مع ملاحظات هامشية عليه وترجمة له وملاحظات عامة على الترجمة .

وعند طبع رسالة أبى دلف أخذنا مخطوط مشهد أساسا ولكن من أجل تنقيح النص استعنا باستمرار بالاقتباسات الموجودة فى معجم ياقوت الجغرافى حسب طبعة ويستنفيلد وأيضا حسب النسخ الأربعة من هذا المؤلف المخزونة فى معهد شعوب آسيا ^(٢) أما المؤلف الجغرافى لى كرىا القزوينى فلم يستخدم من أجل هذا الغرض لأنه اعتمد فى مقتطفاته من « الرسالة الثانية » على ياقوت فقط . وهناك بعض الإضافات لتلكة ما سقط من نص مخطوط مشهد وهى تتفق مع معجم ياقوت وموضوعة بين قوسين مربعين .

وفى الملاحظات على النص أشرنا باستمرار إلى مقابل اقتباس ياقوت من

(١) انظر ابن فضلان ١٩٣٩ ص ص ٢٣ - ٢٦ .

(٢) مخطوطات تحت الارقام من ٥٨٨ - ٥٩٠, ١٢٨, وبخصوص معالم

هذه المخطوطات انظر المرجع السابق ص ١٧٧ .

نص « الرسالة الثانية » وكذلك التصحيحات ومدى اتفاق النص مع ياقوت أو مع وجهة نظرنا وكل ما صغر أو كبر من اختلاف القراءات المهمة . وأخيرا أشرنا إلى عيوب ومناقص كتابة بعض الكلمات في المخطوط . إلا أن بعض الخصائص الكتابية للمخطوط وبعض الأخطاء الواضحة للناسخ لم نذكرتها بها في الملاحظات . منها على سبيل المثال: عدم وجود علامات التشكيل على بعض الحروف أو اختلاطها ببعض وعدم وجود الهمزة باستمرار في كل أوضاعها ، واحلال المد بدل الهمزة ، وظهور ألف الوقاية في نهاية الفعل الناقص المسند إلى ضمير المتكلم ، وعدم صحة أسماء العدد ، وطريقة كتابة بعض الحروف والوصلات وهكذا . .

وقد استخدمت الاختصارات التالية في ملاحظات النص . (١)

والهدف من التعليقات على النص توضيح بعض السميات الجغرافية والمصطلحات وأسماء الأشخاص وبعض الموضوعات الأخرى للرسالة .

وقد اعتمد المؤلفان على قاعدة عريضة من القراء واستعاننا بأنفسهما على توضيح بعض الأشياء المعروفة للمتخصصين ، ولم يتوسعا في الملاحظات على التفصيلات . وهذا التساهل في الملاحظات كما يأمل المؤلفان يعوضه ما يوجد باستمرار في كل ملاحظة من ارجاع القارئ إلى المراجع والكتب المعنية المتصلة بالموضوع حيث يجد المتخصص توضيح ما يهمه من تفصيلات .

(١) يلي ذلك ذكر الطريقة المتخذة في اختصار الكلمات الروسية ولا داعي لذكرها (المترجم) .